حركة عصيان التونتاش الآرمني وأثرها على العلاقات الإسلامية الصليبية 542هـ/ 1147م

د. عائشة بنت مرشود حميد الحربي

أستاذ التاريخ الوسيط المشارك/ جامعة طيبة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية

المملكة العربية السعودية/المدينة المنورة

The movement of the Armenian Altunash rebellion and its impact on the Crusader Islamic relations AH / 1147 AD 542

Dr. Aisha Bint Murshoud Hamid Al Harbi

Associate Professor in Medieval History, University of Taiba, Faculty of Arts and Humanities, Al-Madina Al-Monawara, Kingdom of Saudi Arabia

E-mail: aamhharbi@taibahu. edu. sa

Abstract:

This study deals with the subject of the movement of disobedience of Tontash and its impact on the relations of the Crusader Islamic 542 AH / 1147 AD, and the study was through several investigations starting from Damascus stand as a stumbling block to the Islamic unity through its alliance with the Kingdom of Jerusalem Crusade, and then support the Crusaders to the governor of Basra and Srakhd independence in the province Horan, and what led to this support of the crisis in the Damascus Damascene relations. To examine the importance of the details of the events and the effects of this movement on the Islamic and Crusader sides. The research aims to reveal the details of the disobedience movement and the factors that led to the acceptance of King Baldwin III principle The study revealed a number of results, the most important of which are: The keenness of the Governor of Damascus to return to the alliance again with the Crusaders and its purpose. The events resulting from the support of the wali governor led to shaking the confidence of the Crusaders with their king, the minor, Baldwin III

Keywords: Bosra, Sarkhad, Baldwin III, Horan, Altuntash **.**

الملخص:

يتناول هذا البحث بالدراسة موضوع حركة عصيان التونتاش وأثرها على العلاقات الإسلامية الصليبية 542هـ/ 1147م, وتمت الدراسة من خلال عدة مباحث بداية من وقوف دمشق حجر عثرة للوحدة الإسلامية عن طريق تحالفها مع مملكة بيت المقدس الصليبية, ثم مساندة الصليبيين لوالي بصرى وصرخد للاستقلال بإقليم حوران, وما أدت إليه هذه المساندة من تأزم في العلاقات الدمشقية الصليبية. **وللبحث أهمية** في عرض تفاصيل أحداث وآثار هذه الحركة على الجانبين الإسلامي والصليبي. **ويهدف البحث** إلى الكشف عن تفاصيل حركة العصيان، والعوامل التي أدت إلى قبول الملك بلدوين الثالث مبدأ المساندة للوالي الثائر. واعتمد البحث على المنهج التاريخي الوصفي التحليلي. وكشفت الدراسة **العديد من النتائج** من أهمها: حرص حاكم دمشق على العودة للتحالف مجددا مع الصليبيين وغرضه من ذلك, وأدت الأحداث المترتبة على مساندة الوالي العاصي إلى اهتزاز ثقة الصليبيين بملكهم –القاصر– بلدوين الثالث.

الكلمات المفتاحية: بصرى، صرخد، بلدوين الثالث، حوران، التونتاش.

المقدمة

يتناول هذا البحث بالدراسة موضوع حركة عصيان التونتاش وأثرها على العلاقات الإسلامية الصليبية 542/1147م

ومن أهم أسباب اختيار هذه الحركة كموضوع للدراسة هو عدم وجود دراسة مستقلة عنها, فكل ماورد عنها أنها تذكر ضمن أحداث الحروب الصليبية, بجانب دورها في تغيير ميزان العلاقات بين دمشق وحلب من جانب, وبين دمشق ومملكة بيت المقدس من جانب آخر.

أما عن **مشكلة الدراسة** فتمثلت في عرض الدوافع الصليبية في قبول مساندة والي بصرى وصرخد _العاصي– وطرح المؤرخون حول هذا القرار وأبعاد نتائجه.

واعتمد **منهج الدراسة** على المنهج التاريخي القائم على الوصف والتحليل والنقد بغرض الوصول للحقيقة التاريخية النسبية.

أما عن **خطة الدراسة** فالبحث يشتمل على مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث, فالمقدمة توضح الموضوع وأسباب اختياره وأهميته ومشكلة ومنهج الدراسة وتقسيمات البحث. أما التمهيد فإنه يشتمل على تبني عماد الدين زنكي _حاكم الموصل _الدعوة لمشروع الجبهة الإسلامية الموحدة, وتبني حاكم دمشق السياسة المضادة لذلك, ودور نور الدين محمود _حاكم حلب _ في انتهاج العديد من السياسات لمصانعة حاكم دمشق, وأسفرت هذه السياسة عن إعطاء نور الدين دورا أساسيا في معالجة حركة العصيان.

ويشمل **المبحث الأول** أحداث حركة العصيان بداية من أسبابها, ثم دوافع مساندة الملك الصليبي بلدوين الثالث لحاكم بصرى وصرخد, وموقف المؤرخون من قرار المساندة.

ويتناول **المبحث الثاني** المراسلات بين ملك بيت المقدس وحاكم دمشق, حيث تم في هذه الرسائل عرض وجهة نظر الملك الصليبي في أمر مساندتهم للثائر, في ظل وجود معاهدة تحالف قائما بينهما, وانه يتعهد بسلامة دمشق. وبعث حاكم دمشق برسالة للملك الصليبي يطلب منه التراجع, وتجديد التحالف, وأنه مستعد لضمان التعويضات المناسبة لهم.

ويعرض **المبحث الثالث** آثارحركة العصيان على العلاقات الإسلامية الصليبية, حيث أدت إلى فسخ التحالف بين دمشق وبيت المقدس, والتقارب بين حلب ودمشق, مع إدراك نور الدين لأهمية سيطرته مستقبلا على دمشق.

وأنهيت البحث **بخاتمة** اشتملت على أهم النقاط التي تم تحليلها, وأهم النتائج التي تم استخلاصها من دراستي لموضوع البحث.

وفي آخر البحث أعددت **قائمة** بأسماء المصادر والمراجع من عربية أو أجنبية معربة.

التمهيد

قام عماد الدين زنكي –حاكم الموصل– (521–541هـ / 1127–1146م) بالدعوة إلى بناء جبهة إسلامية موحدة بغرض مجابهة العدوان الصليبي[1]، ومن أجل ذلك استولى على حصن بعرين (بارين) [2]، 531هـ/1136م[3]، وتطلع للسيطرة على دمشق ولكنه ما لبث أن رفع الحصار عنها مضطراً 534هـ/1139م، لأن أتابكها معين الدين أنر عقد معاهدة تحالف مع الملك الصليبي فولك الأنجوي Fulk of Anjou(526–538هـ/1131–1143م) [4]، وبذا صرف النظر مؤقتاً عنها، وواصل جهاده والذي توجه باسترداد الرها 539هـ/1144م[5].

ثم توجه للحصون الصليبية المجاورة – شرقي الفرات – فاستولى على سروج[6] وحاصر البيرة[7] ولشدة مناعتها رحل عنها[8].

والذي شجعه على ذلك قيام الملك القاصر بلدوين الثالثBaldwinIII (538–558هـ / 1143 – 1162م) على عرش مملكة بيت المقدس، ولذا سعت والدته مليسندا Melisendلتولي الحكم بالوصاية على ابنها بلدوين البالغ من العمر ثلاثة عشر

([1]) ارشيد يوسف: سلاجقة الشام والجزيرة، صـ179، حامد غنيم: الجبهة الإسلامية، ج1، صـ251، عصام الفقي: بلاد الجزيرة، صـ159، محمود عمران: الحروب الصليبية، صـ58.

([2]) بارين: مدينة بين حلب وحماة من جهة الغرب ولها قلعة، الحموي: معجم البلدان، م2، صـ256.

([3]) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، صـ259، ابن الأثير: الكامل، ج11، صـ51، ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، ج2، صـ40، حامد غنيم: الجبهة الإسلامية، ج1، صـ258.

([4]) ابن منقذ: الاعتبار، صـ137، ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، صـ273، ابن خلدون، العبر، جـ5، صـ59، أبو الفدا: المختصر، ج2، صـ80، فتحية البزاوي: العلاقات السياسية، صـ158، الحريري: الأخبار السنية، 57، عزيز عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، صـ59، رينيه كروسيه: الحروب الصليبية، صـ64، يوشع براور: الاستيطان الصليبي، صـ41.

([5]) ابن الأثير: الكامل، ج11، صـ98، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، صـ279، ابن كثير، البداية والنهاية، ج12، صـ232، ابن العديم: زبدة الحلب، ج2، صـ278.

([6]) سروج: بلدة قريبة من حران من ديار مضر، الحموي: معجم البلدان، م3، صـ43.

([7]) البيرة: بلدة قرب سميساط بين حلب والثغور الرومية ولها قلعة حصينة. الحموي: معجم البلدان، م1، صـ413.

([8]) ابن الأثير: الكامل، 99/11، ابن العديم: زبدة الحلب، 280/2، ابن واصل: مفرج الكروب، 96/1، ابن الأثير: الباهر، 69 – 70، ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، صـ179.

عاماً، بالإضافة إلى أنها ذات خبرة عالية في أمور السياسة والحكم، لذا تمكنت من الاستقلال بأمور المملكة الصليبية، وبذا تكون قد قدمت الملكة طموحها الشخصي على المصلحة العامة[1].

أما عماد الدين زنكي فإنه قتل عام (541هـ / 1146م) [2]، وتم تقسيم مملكته بين ابنيه سيف الدين غازي في الموصل (541-544هـ / 1146-1149م) ونور الدين محمود في حلب (541-570هـ / 1146-1174م) [3].

ويشكل هذا التقسيم مصدر إزعاج وقلق للصليبيين، والعلة في ذلك لأن نور الدين محمود – المعروف بقوته – ستقع عليه مسألة مقاومة النفوذ الصليبي في بلاد الشام، وهذا يتطلب منه الجهاد في جانبين الدمشقي والصليبي في آن واحد[4].

وأكثر ما يعيق تقدمه في الجبهة الشامية هو ولاء معين الدين أنر – حاكم دمشق – للصليبيين وعقده لمعاهدات التحالف معهم، ولذا كان ينصرف عن دمشق متبعاً نفس سياسة والده – عماد الدين – وذلك خشية أن تتحد عليه الجبهتين الصليبية والدمشقية في آن واحد، وهو في هذا التوقيت غير مستعد لمجابهتهما لأن مشروع بناء الجبهة الإسلامية الموحدة لم يكتمل بعد[5].

حقيقة إن هذا التحالف يدل على شدة دهاء أنر، إذ يريد الاحتماء بالصليبيين حتى يظل محتفظاً باستقلال دمشق بعيداً عن سيطرة نور الدين محمود، فهو يستخدم كلتا القوتين الإسلامية والصليبية لمدافعة بعضهم بعضاً[6].

وأدرك نور الدين بثاقب فكره هدف أنر من التحالف مع الصليبيين وحقيقة نواياه تجاهه.

لذا لجأ إلى اتخاذ عدة خطوات لتقوية نفوذه، حيث تمثلت خطوته الأولى في تسوية خلافه مع أخيه سيف الدين غازي، فتوجه للموصل لمصالحة أخيه وقد سكن نور الدين وأطمأن حينما قال له أخيه "غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا، فمن يريد السوء بنا يكف عنه"[7].

نستنتج وطبقاً لما ذكره ابن واصل عدة أمور:

- أهمية اتحاد أبناء البيت الزنكي ونبذ الخلافات الشخصية.
- حنكة سيف الدين غازي وفطنته عندما لاحظ حدوث وحشة بينه وبين أخيه نور الدين لذا بادر بتوضيح موقفه.
- إن الغرض من إقامة نور الدين بالموصل هو الإعلام للملوك والصليبيين بأنهما يمثلا جبهة واحدة، وعبارة الملوك يقصد بها المسلمين والصليبيين.
- إيضاح الحكمة من الاتحاد وهو إرهاب الأعداء فكل من لديه نوايا سيئة فإنه سوف يتوقف عن تنفيذها.
- علم الأخوين بأن هناك أعداء متربصين بهم.

أما الخطوة الثانية فكانت بعقد معاهدة صلح مع أنر عام 541هـ/1146م. وزيادة في توثيق أواصر العلاقات السياسية بينهما فقد تزوج نور الدين من أبنه أنر ولذا أستقر الحال بينهما بصفة جيدة[8].

وفي الحقيقة كان لهذا الزواج السياسي ثماره، حيث أتاح لنور الدين الفرصة حتى يتدخل في شؤون دمشق عندما حدثت حركة عصيان التونتاش، وأدت إلى التغيير في أنماط العلاقات الإسلامية الصليبية.

أحداث حركة العصيان

ظهرت هذه الحركة عام 542هـ/1147م عندما رغب التونتاش _ والي بصرى[1] وصرخد[2] الآرمني الأصل _الاستقلال بحكم إقليم حوران[3]، التابع لدمشق وهذا تمرد وعصيان "وكانت نفس التونتاش قد حدثته لجهله أن يقاوم من يكون مستولياً على دمشق"[4].

([1]) العظيمي: تاريخ حلب، صـ398، وليم الصوري: الحروب الصليبية، 234/3، حسن حبشي: نور الدين والصليبيون، صـ32، مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب الصليبية، م1، 252، سعيد برجاوي: الحروب الصليبية في المشرق، صـ278.

([2]) ابن الأثير: الباهر، صـ74، وليم الصوري: الحروب الصليبية، 242/3.

([3]) ابن الأثير: الكامل، 112/11، ابن كثير: البداية، 237/12، العبري: تاريخ مختصر الدول، صـ180، ارشيد: سلاجقة الشام، صـ190.

([4]) حسين مؤنس: نور الدين محمود، صـ201، مسفر الغامدي: الجهاد الإسلامي، صـ244، هانس ماير: الحروب الصليبية، صـ163.

([5]) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية، صـ278.

([6]) عزيز عطية: العلاقات بين الشرق والغرب، صـ59، فايد عاشور: جهاد المسلمين، 212.

([7]) ابن واصل: مفرج الكروب، 112/1.

([8]) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، صـ289، حسن حبشي: نور الدين والصليبيون، صـ43، محمد الناصر: الجهاد والتجديد، صـ186.

للباحثة وقفة تحليل وتعليق على ما ذكره أبو شامة أورده في النقاط التالية: –

- تدل عبارة "نفس التونتاش، على تأكيد نسب الفكرة إليه حيث أنها نبعت من تلقاء نفسه فهي نبات فكرة وهدي عقله الجاهل.
- نقد المؤرخ لصاحب الفكرة الجاهل، إذ لا يوجد تكافؤ بينه وبين سيده في السلطة.
- دقة المؤرخ في عبارة "مستوليا" ولم يقل واليا أو حاكماً فهو يقصد بذلك معين الدين أنر الذي وصل للسلطة عن طريق سيطرته على الحاكم مجير الدين طغتكين ففوض الأمر لوزيره "المستولي".

وحتى تخرج فكرته إلى حيز التنفيذ فإنه لجأ إلى البحث عن حليف له يتقوى به، لذا توجه إلى مملكة بيت المقدس الصليبية فاقترح على الملك بلدوين الثالث وأمه_الوصية_ مليسندا عرضاً مغرياً وهو أن يتنازل لهما عن بصرى وصرخد، مقابل أن يقدم الدعم اللازم له حتى يتمكن من السيطرة والإستقلال بحكم إقليم حوران[5].

وأمام هذا العرض المغري لهم لجأت الملكة مليسندا إلى عقد مجلس للنظر فيه، وما لبث أن لقي الترحيب والاستحسان من جميع بارونات المجلس.

وللباحثة أن تتساءل عن أسباب الموافقة ؟ والنقد الموجه لهذا القرار.

أما عن أسباب الموافقة فقد عللها العديد من المؤرخين من عدة جوانب من أهمها المزايا الإستراتيجية والمتمثلة في مرور الطرق التجارية بهذا الإقليم، مع ضخامة الثروة الزراعية فيه، وفضلاً عن ذلك فإن بصرى تقع على طريق الحج الشامي الموصل إلى الأراضي المقدسة[6].

وتعتبر حوران من الناحية السياسية البوابة التي تؤدي على سيطرتهم على دمشق، وبذا تتحقق أحلاما لهم طالما راودتهم، وأغلب سكانها من المسيحيين ويدعموا الوجود الصليبي[7].

وترى الباحثة أن هذا الحلم يكشف بجلاء عن نيتهم بعدم الالتزام بمعاهدة الأمان بينهما.

أما وليم الصوري فاعتبر هذا العمل من باب طلب رضا الإله[8]، ولا غرو أن يذكر ذلك فدائماً الحركة الصليبية تخفي مطامعها الحقيقية خلف الستار الديني.

كما دفعتهم الرغبة في السيطرة على مناطق جديدة ومجهولة بالنسبة لهم, لذا تعد مغامرة خاصة بعد أن دفعهم إغراء التونتاش لها بسبب كثرة خيراتها[9].

وحرص التونتاش على تقديم هذا العرض حتى يحصل على الدعم المناسب من الصليبيين حتى يحقق هدفه، فيظهر أمام أنر بالمنتصر، مما يجعله يذعن لمسألة استقلاله بإقليم حوران وعزا أحد المؤرخين السبب الكامن وراء اختيار التونتاش للصليبيين ليكونوا له حلفاء في استقلاله بحوران من زاويتين أولهما عدم حصوله على دعم من القوات الإسلامية لعدم تأييدهم لتابع متمرد على سيده، إضافة إلى تغيير السياسة الصليبية بعد وفاة الملك فولك وتتويج ابنه بلدوين الثالث[10].

([1]) بصري: مدينة قديمة تقع في إقليم حوران في الجنوب من دمشق وفي شرقيها صرخد، وبها قلعة ذات بناء قوي وبساتين. أبو الفدا: تقويم البلدان، صـ253، الحموي: معجم البلدان، م 1, صـ348، أحمد عطية: القاموس الإسلامي، 323/1.

([2]) صرخد: من أعمال دمشق وملاصقة لحوران، وذات قلعة مرتفعة. أبو الفداء: تقويم البلدان، صـ259، الحموي: معجم البلدان، م184/3، عطية: القاموس، 266/4.

([3]) حوران: كورة واسعة من أعمال دمشق ويعرف اليوم باسم درعا. الحموي: معجم البلدان، م193/2، أحمد عطية: القاموس، 178/2.

([4]) أبو شامة: الروضتين، ج50/1.

([5]) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، صـ289، حسين مؤنس: نور الدين زنكي، صـ203، سعيد عاشور: الحركة الصليبية، 491/1، فايد عاشور: جهاد المسلمين، صـ212، مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب، م1، صـ253.

([6]) محمد مؤنس: السياسة الخارجية، صـ142.

([7]) محمد مؤنس: السياسة الخارجية، صـ142.

([8]) وليم الصوري: الحروب الصليبية 244/3.

([9]) مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب الصليبية، م253/1.

([10]) محمد مؤنس: السياسة الخارجية، صـ141.

ومن جانب آخر وجه انتقاد لهذا القرار من بعضه مؤرخي الغرب إذ وصفهم باركر بالحماقة وذلك لأن معادلة العرض غير متكافئة فهم سيخرقون ميثاق التحالف العريق مع دمشق نظير حصولهم على مدينتين صغيرتين "بصرى وصرخد"[1]، وتتفق الباحثة مع رأيه, وتعتبر حرباً غير عادلة لأنها ضد حليف مخلص لهم، وقامت من أجل مناصرة رجل خائن لسيده[2].

المراسلات الصليبية الدمشقية

أوجبت المعاهدة الصليبية الدمشقية على بلدوين الثالث أن يوفد رسله إلى أنر مخبراً إياه بأنه معسكرا في طبرية[3]، مساندة للتونتاش [4].

وفي هذا الموقف ظهر مدى ما يتمتع به أنر من دهاء وحكمة والتي تعد من المقومات الأساسية لسيطرته على دمشق، لذا فإنه لم يستعجل في الرد على الرسل الصليبية بل تعمد التأخر ولعله يهدف إلى:

- إيقاع الضغط النفسي على الملك بلدوين حتى يتراجع عن دعم التونتاش.
- عدم إشعار نور الدين بأن دمشق تنتظرها موجة خطر قادمة، وهذا يشجعه على التفكير بالسيطرة عليها.

كما أوضح الصوري بأن سبب تأخره في الرد بغرض أن يعطي نفسه فرصة لطلب المساعدات العسكرية، وأثنى عليه ورأى أن هذا التصرف من دلائل الفطنة والذكاء[5].

وقام أنر بطلب المساعدات العسكرية وذلك حتى يحول بين التونتاش وبين الوصول لبصرى وصرخد حتى لا يقوم بتسليمها للصليبيين ثمناً لمساعدتهم له[6].

وبالرغم من الاستعدادات التي قام بها أنر إلا أنه شديد التمسك بالوفاء بمعاهدته مع الصليبيين لأنها تمثل ميزان التوازن السياسي الذي يدافع به قوات نور الدين، لذا أرسل رسالة للملك بلدوين الثالث أورد ها الصوري في كتابه ونورد مقتطفات منها: "لقد خالفتم شروط الاتفاق الذي ارتضيتموه، إذ رحتم تستعدون لدخول أرض مولاي، ورحت أنت أيها الملك تبسط حمايتك على تابعه الخارج عليه الذي لا يستحق الرعاية"[7].

يتضح من خلال قراءة الباحثة التحليلية للنص السابق ما يلي:

- حرص أنر في مطلع رسالته على تذكير الملك بلدوين الثالث بأن بينهما معاهدة صلح قائمة في أساسها على الشروط المطروحة من الملك الصليبي السابق[8].
- شدة دهشة أنر من مساندة بلدوين لهذا التأثر الذي نكث قسم الولاء والطاعة لسيده لذا هو لا يستحق أدنى اهتمام بمطلبه.
- لجأ أنر إلى استخدام عبارات التذلل والتضرع الشديد للملك بلدوين بعد شدة الإشادة به ووصفه بالمعظم أي جليل القدر لدينا.
- وصف تحالف بلدوين مع التونتاش بأنه يتنافى مع قواعد العدل والمعاهدات بين الحلفاء. إذ الأصل العمل بها وعدم خرقها.
- استعداد أنر لمنح الملك بلدوين كل التعويضات المناسبة إن وافق على التراجع عن مساندة التونتاش.

وأصاب رنسيمان في تعليقه حيث ذكر أن الرسالة فيها دلالة واضحة على تمسك أنر بمبدأ التحالف الصليبي وذلك لعظم خوفه من نور الدين زنكي[9]، فإنه يرى لديه نفس تطلعات والده عماد الدين لذا هو كثير الخشية منه[10].

([1]) آرنست باركر: الحروب الصليبية، صـ73.
([2]) مكسيموس مونروند: تاريخ الحروب الصليبية، م253/1.
([3]) طبرية: بلدة فلسطينية قديمة تطل على الضفة الغربية للبحيرة التي تعرف باسمها وهي تقوم على سهل خصيب بين جبال الجليل في الغرب وساحل بحيرة طبرية، الحموي: معجم البلدان، م248/3، أحمد عطية: القاموس، 464/4.
([4]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، 244/3.
([5]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، 244/3.
([6]) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، 289.
([7]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، 244/3-245.
([8]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، 175/3، ابن الأثير: الكامل، 74/11، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، 364/2.
([9]) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، 389/2.
([10]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، 246/3.

أما بالنسبة للملك بلدوين الثالث فإنه شرع بالرد برسالة مماثلة إلى أنر والتي نورد بعضاً منها: "إننا غير عازمين أبداً على أن ننقض بأي حال من الأحوال نصوص الاتفاق الذي أبرمناه معكم، لكن لما كان هذا الرجل النبيل قد جاءنا ليناقش معنا بعض المسائل بروح ودية، فإن الشرف يأبى علينا أن نخذل رجلاً وضع أمله في مملكتنا"[1].

يتضح للباحثة من تلك الرسالة بأن بلدوين حاول أن يبرر لأنر سبب التزامه بمساعدة التونتاش بما يتناسب مع أخلاق الملوك في تعاملهم مع من استغاث بهم، وأنه حريص على احترام استقلال دمشق ولا يتطلع للحصول على أي مكاسب بل إنه يلتمس من أنر أن يعيد التونتاش إلى أملاكه السابقة في بصرى وصرخد وبعدها لسيده أنر كامل الحق ومطلق الحرية في تأديب هذا الثائر, وترى الباحثة أيضاً أن تصرفات بلدوين تتنافى مع أقواله فهو يريد الحصول على بصرى وصرخد وهي من إقليم حوران التابع لدمشق وهذا اعتداء على سلطة حليفهم الدمشقي.

وهذا أيضاً أثار دهشة أحد المؤرخين المحدثين حينما علق الرد بقوله: "يطمئنون حاكم دمشق بأن جيشهم أثناء توجهه إلى بصري وصرخد لن يمس دمشق ضرر بحال من الأحوال، وكأن المناطق التي سيتوجهون إليها تتبع دولة أخرى، ولا علاقة لدمشق بها "[2].

الصراع الإسلامي الصليبي في إقليم حوران

قام أنر بالتوضيح للرسول الصليبي برنارد بأن تصرفهم خاطئ ويمثل خطر أ على الجانبين، ولقناعة برنارد بهذا الرأي فإنه أقنع الملكة مليسندا و إبنها بلدوين، لذا تم من جديد النظر في أمر الاستمرار في مساندة التونتاش أو الرجوع بالحملة[3].

فتم في البداية الموافقة على التراجع، ولكن الجند رفضوا الرجوع، لذا "تغلبت إرادة الغوغاء"[4]. عبارة وليم فيها دلالة على استهزائه بأصحاب هذا الرأي فهم جند ثائرون، فعمدوا إلى تجاهل رأي الرسول برنارد، فأذعن لرغبتهم بلدوين، ومن ثم أعلنوا المسير نحو دمشق، فتوجهوا من طبرية إلى إقليم الجولان[5]، وهناك اصطدموا بالجند العرب والتركمان، ففزع الصليبيون وفكروا جديا بالتراجع، وهذا يعود إلى دقة أنر في تنظيمه للاستعداد لمواجهتهم، وفي الوقت ذاته أوفد رسل الاستغاثة إلى نور الدين بحلب[6].

ولنا أن نقف بشيء من التحليل على موقف نور الدين من هذا الطلب، حيث رحب كثير بهذا الأمر لأن فيه فرصة لزيادة التقارب بينه وبين دمشق، إضافة إلى رباط المصاهرة، وطلب أن يمنح حماة نظير هذه المساعدة مع التزامه بعدم الهجوم على دمشق[7].

أما عن الملك بلدوين فإنه رفض روح الانهزام فأمر جنده بأن يعسكروا بعد بناء الخيام ويأخذوا قسطاً من الراحة حتى يتم النظر في الغد بخطتهم القادمة[8].

وفي الغد تم عقد مجلساً تقرر فيه مواصلة السير نحو الهدف، خاصة أن المسلمين محيطين بهم وطوقوهم بقواتهم، ولذا سار الجيش الصليبي بشقيه الفرسان والمشاة جنباً إلى جنب متحدين كل الصعاب، والتي تتمثل في كثرة رميهم بسهام المسلمين مع العطش الشديد بسبب حرارة الصيف مع قلة الآبار[9]، حتى وصلوا إلى درعا[10].

وعندما علم أنر بوصولهم إلى درعا أمر بسرعة التوجه نحو صرخد شرقاً، ولذا طلب أهلها الآمان من أنر، وعقد الهدنة فوافق "وكان ذلك منهم على سبيل المغالطة والمخاتلة إلى أن يصل عسكر الإفرنج لترحيلهم"[11].

([1]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، 245/3.
([2]) عبد الغني هرة: الهدن والمفاسخات، صـ55
([3]) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، 390/2.
([4]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، 247/3.
([5]) الجولان: من نواحي دمشق من عمل حوران. الحموي: معجم البلدان، م95/1.
([6]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، 247/3، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، 390/2.
([7]) أبو شامة: الروضتين، ج1، صـ50، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، صـ289، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، ج2، صـ390.
([8]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، 248/3.
([9]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، 248/3.
([10]) درعا: تقع في جنوبي دمشق. أحمد عطية: القاموس، جـ2، 361.
([11]) أبو شامة: الروضتين، 50/1، ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، 289.

تكشف عبارة المؤرخين عن النوايا الحقيقية لأهالي صرخد من طلب الهدنة إذ لم يكونوا صادقي النية في مطلبهم، إذ يكمن غرضهم في خداع المسلمين حتى يأمنوا جانبهم، وسيسفروا عن حقيقة نواياهم فور وصول الجيش الصليبي الذي بات على مشارف الوصول، بعد أن تحملوا كافة المتاعب لمدة أربعة أيام، وازداد الضغط عليهم بعد أن قام المسلمون بإمطارهم بوابل غزير من السهام، مما أدى إلى سريان اليأس في نفوسهم، فأصبحت مقاومتهم واهنة، "لكن قذائفنا كانت أهون من أن تصيب العدو بأذى"[1].
بأذى"[1].

أما أنر فإنه توجه غرباً للانضمام مع جيش نور الدين القادم من حلب، حتى يتمكنوا من السيطرة على بصرى قبيل وصول الصليبيين إليها، وما أن فرضوا عليها الحصار حتى بادرت زوجة التونتاش بالاستسلام وتسليم المدينة لهما[2].

وهذا التصرف يجسد مدى يأسها من قوة المساعدات الصليبية القادمة لهم.

وعلى كل حال واصل الصليبيون زحفهم نحو بصرى فعسكروا قريباً منها. وفي المساء تسلل إليهم رسولاً سراً فأخبرهم بأن زوجة التونتاش سلمت المدينة لأنر فدخلها بقواته، لذا عقد الصليبيون مجلساً للتشاور في الأمر، فقرروا المسارعة بالعودة إلى مملكتهم، واقترحوا على الملك أن يهرب بنفسه طلباً للنجاة، لكنه رفض ذلك، فهو يعتبر الهروب وصمة عار في تاريخه أن يترك جنده، لذا تجهزوا جميعاً للعودة إلى مملكتهم[3].

وأثناء رحيلهم تعقبهم نور الدين بجيشه محاولاً القضاء عليهم، لكن الصليبيين –كما وصفهم الصوري– اظهروا الصمود بسيوفهم حتى أخفوا القتلى والجرحى، حتى لا يشعروا نور الدين بأنهم في مرحلة ضعف وإبادة، بل قادرين على تحدي كل الصعاب التي مرت بهم من رمي السهام والعطش والمعارك وحرارة الصيف، فأصبح الصليبيون محاصرين بألسنة النيران والدخان، وهذا مما زاد في ضعف الجيش الصليبي[4]، ولذا اقترح النبلاء على الملك الصليبي، بأن يوفد الرسل على أنر ليطلب العودة إلى عقد الهدنة السابقة، وأنهم سيوافقوا على كل شروطه، لكن رسولهم لقي حتفه في الطريق، ولذا واصلوا سيرهم للعودة إلى بيت المقدس، وقبيل وصولهم قدم إليهم رسول أنر يعرض على الملك بلدوين الدعم والمساندة، وتجديد التحالف معهم، لكن بلدوين رفض ذلك[5].

أما أنر فإنه سار إلى دمشق وبرفقته نور الدين محمود، بعد أن نظم أحوال بصرى وصرخد.

وبعد عدة أيام عاد نور الدين إلى حلب[6]، وقد لفت أنظار أهل دمشق حتى تمنوه[7].

وكان للمؤرخين طرحهم حول سياسة معين الدين أنر تجاه الصليبيين ونور الدين محمود.

فلقد وصف أنر بالرجل الخبيث لسوء نواياه تجاه المسلمين وقادة جهادهم، بينما كان نور الدين مخلصاً في حفظ مصلحة المسلمين، بل قائداً فطناً حيث أنه أدرك حقيقة نوايا ومخاوف أنر تجاهه، لكنه تجاهل ذلك بصمت، ولجأ إلى سرعة مغادرة دمشق حتى تهد أ نفس أنر، وفي الوقت ذاته واصل نور الدين خطة جهاده ضد الوجود الصليبي في أنطاكية واستولى على المواقع الحصينة هناك حتى يتقوى بها مستقبلاً[8].

كما أن مواقف معين الدين أنر مع الصليبيين قد قضت على كل الفرص التي واتتهم للسيطرة على بيت المقدس بعد القضاء على الجيش الصليبي. إذ مرت المملكة الصليبية بمرحلة ضعف بعد وفاة الملك فولك، وأيضا لم يستغل جيش نور الدين عندما قدم لحوران لمواصلة الجهاد ضد الصليبيين[9].

أما عن مصير التونتاش فقد أورده المؤرخين "وأوجبوا عليه القصاص، فسمل"[10].

([1]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، 250/3.
([2]) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، صـ290.
([3]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، 251/3 – 252.
([4]) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، صـ290، وليم الصوري: الحروب الصليبية، 253/3.
([5]) وليم الصوري: الحروب الصليبية، 255/3، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، 391/2.
([6]) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، 290.
([7]) ابن كثير: البداية والنهاية، 240/12.
([8]) حسين مؤنس: نور الدين زنكي، صـ205.
([9]) عبد الغني زهرة: الهدن والمفاسخات، صـ56-57.
([10]) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، 290، أبو شامة: الروضتين، 51/1.

ويتضح من آراء المؤرخين مدى استحقاق التونتاش لعقوبة السمل فهو يعتبر مرتدا عن الإسلام لتحالفه مع الصليبيين[1]، وهذا من ضروب الخيانة، و صدرت بحقه العقوبة المناسبة جزاء لخيانته[2].

آثار حركة العصيان على العلاقات الإسلامية الصليبية

- أدت إلى ضرب التحالف بين مملكة بيت المقدس ودمشق، إذ حاربوا حليفهم الدمشقي من أجل أمير ثائر وبمقابل الحصول على مدينتي بصرى وصرخد[3].
- كشفت عن مدى الضعف السياسي والعسكري للصليبيين، إذ تكبدوا خسائر مالية باهظة، وهذا مما يشجع القوات الإسلامية على مجابهتهم نتيجة ضعفهم [4].
- تغيير مسار السياسة الصليبية تجاه المسلمين من الدفاع إلى الهجوم [5].
- منع التحالف الصليبي الدمشقي نور الدين محمود من السيطرة على دمشق وبيت المقدس، فكلاهما بموجب التحالف يعتبر درعاً حامياً للآخر، ولذا أرجأ تنفيذ هذه الفكرة مثل والده إلى أن تحين الفرصة المناسبة [6].
- دعم التحالف دمشق سياسياً واقتصادياً وهذا جعلها تعيش فترة سلام وهدوء[7].
- كشفت حركة العصيان عن النوايا الحقيقية لأنر تجاه نور الدين فهو يرفض الانضمام تحت لوائه[8].
- وجهت هذه الحركة جهود نور الدين نحو أنطاكية وحصونها[9].
- دفع توتر التحالف الصليبي الدمشقي بأنر لطلب المساندة من نور الدين محمود[10].
- برهنت الحركة على أهمية التلاحم بين قوات حلب ودمشق حتى يتم النصر على الصليبيين[11].
- فتح باب التعاون العسكري بن أنر ونور الدين[12].
- ثقة أنر الكبيرة بالصليبيين وأنه يفضل التحالف معهم خدمة لمصالحه بعيداً عن جهاد الأسرة الزنكية[13].
- لفتت انتباه نور الدين إلى أهمية التطلع مستقبلاً للسيطرة على دمشق لأهميتها السياسية والاقتصادية[14].
- ارتفاع مكانة نور الدين عند أهالي دمشق لما رأوا من الهيبة وقوة العتاد[15].
- تحطم الحاجز السياسي "التحالف" الذي منع قادة الجهاد الإسلامي من السيطرة على دمشق[16].
- دفعت المخاوف بأنر بأن يطلب تجديد التحالف مع الصليبيين لما رأى قوة نور الدين محمود[17].
- حرص أنر على إتباع السياسة الودية مع الجانبين الإسلامي والصليبي في آن واحد[18].

كل الآثار السابقة تدل ان الحملة لم توفق في اختيار الهدف المناسب, والذي يتناسب مع ضخامة تكاليفها, وهذا يدل على سوء تدبير الصليبيين وحماقتهم([19]).

([1]) فايد عاشور: جهاد المسلمين، صـ213.
([2]) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية، صـ292.
([3]) باركر: الحروب الصليبية، صـ73، محمد مؤنس: السياسة الخارجية، صـ144.
([4]) رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، 392/2، سعيد برجاوي: الحروب الصليبية، صـ291.
([5]) محمد مؤنس: السياسة الخارجية، صـ141.
([6]) رينيه كروسيه: الحروب الصليبية، صـ64، يوشع براور: عالم الصليبيين، صـ70.
([7]) يوشع براور: عالم الصليبيين، صـ70.
([8]) حسين مؤنس: السياسة الخارجية: صـ144، حسين مؤنس: نور الدين زنكي، صـ205.
([9]) مسفر الغامدي: الجهاد الإسلامي، صـ247. ابن العديم: زبدة الحلب، 291/1.
([10]) محمد مؤنس: الحروب الصليبية، صـ181، محمد مؤنس: السياسة الخارجية، صـ144.
([11]) محمد مؤنس: السياسة الخارجية، صـ144.
([12]) محمد مؤنس: الحروب الصليبية، صـ181.
([13]) يوشع براور: عالم الصليبيين، صـ70.
([14]) محمد مؤنس: الحروب الصليبية، صـ181.
([15]) أبو شامة: الروضتين، 50/1، ابن كثير، 240/12، سعيد برجاوي: تاريخ الحروب الصليبية، صـ292.
([16]) فتحية النبراوي: العلاقات السياسية، 158، عصام شبارو: تاريخ المشرق, ص112، رينيه كروسيه: الحروب الصليبية، صـ64، يوشع براور: الاستيطان الصليبي، صـ41.
([17]) سعيد برجاوي: الحروب الصليبية، صـ292.
([18]) سعيد عاشور: الحركة الصليبية، 490/1، عصام شبارو: تاريخ المشرق، ص 112، يوشع براور: الاستيطان الصليبي، صـ41
(2)رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية, 392/2.

النتائج

شملت دراسة موضوع حركة عصيان التونتاش العديد من النقاط التي تم تحليلها, ومن ثم الوصول للعديد من النتائج يمكن عرضها على النحو التالي:

- عرضت الدراسة أسباب معارضة دمشق لمشروع بناء الجبهة الإسلامية الموحدة.
- ألقت الدراسة الضوء على مكاسب دمشق من التحالف مع مملكة بيت المقدس الصليبية.
- أوضحت الدراسة أسباب عصيان والي بصرى وصرخد لسيده حاكم دمشق.
- ناقشت الدراسة الدوافع السياسية والاقتصادية والسكانية التي جعلت مملكة بيت المقدس الصليبية تساند هذا الثائر.
- ساهمت الدراسة في عرض للملكة _الوصية _مليسندا في اتخاذ القرارات وقبول عرض التونتاش.
- إن تولي ملك قاصر عرش مملكة بيت المقدس واتخاذه لقرارات تناقض سياسة والده فولك مع دمشق جعل الصليبيين أنفسهم يفقدون الثقة به.
- طرحت الدراسة آراء المؤرخين حول آثار حركة العصيان على مستقبل العلاقات الإسلامية الصليبية.
- أكدت الدراسة أن محاربة حليف دمشقي تعد حربا غير عادلة.
- تناولت الدراسة مبررات علاقة دمشق الودية مع القوى الإسلامية والصليبية في آن واحد.
- أثبتت الدراسة بأن توجه نورالدين بعد انتهاء حركة العصيان للسيطرة على حصون أنطاكية, ماهو إلا دفعا لمخاوف معين الدين أنر من قوة عتاد ه وهيبة عسكره.
- أدى دخول نور الدين إلى دمشق بعد انتهاء الحركة إلى لفت انتباه دمشق لقوته حتى تمنوه
- اجمع المؤرخون على مدى حماقة وسفاهة التونتاش في موضعين, أولهما خروجه على سيده, وثانيهما دخوله لدمشق بدون عهد أمان.
- ساهم زواج نور الدين محمود من ابنة معين الدين أنر في دعم الروابط مع دمشق.
- أثبتت الدراسة مدى حرص حاكم دمشق على تجديد التحالف مع الصليبيين بعد هزيمتهم في حوران.
- اتفق المؤرخون بأن التونتاش نال العقوبة المناسبة لخروجه على سيده.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر العربية

- ابن الأثير: (ت630هـ/1232م).
- **التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل**، تحقيق عبد القادر طليمات، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ط1963م.
- **الكامل في التاريخ**، دار صادر، بيروت، ط1979م، الجزء الحادي عشر.
- ابن خلدون: (ت 808هـ /1405م)
- **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، دار الكتب العلمية، بيروت. ط1، 1992م، الجزء الخامس
- ابن العبري (ت660هـ / 1286م).
- **تاريخ مختصر الدول**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1997م.
- ابن العديم: (ت672هـ / 1274م).
- **زبدة الحلب من تاريخ حلب**، تحقيق سامي الدهان، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ط1951م
- ابن العظيمي: (ت 558هـا 1163م)
- **تاريخ حلب**, تحقيق إبراهيم زعرور, دمشق, 1984م.
- ابن القلانسي (ت555هـ/1160م).

- **ذيل تاريخ دمشق**، مكتبة المتنبي، القاهرة، د(ت).
- ابن كثير: (ت774هـ/1372م).
- **البداية والنهاية**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1985م، الجزء الثاني عشر.
- ابن واصل: (ت697هـ/1298م).
- **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ط1953م, الجزء الأول.
- ابن الوردي (ت 749هـ\ 1348م)
- **تاريخ ابن الوردي**، بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1996م, الجزء الثاني.
- أبو شامه: (ت665هـ1267م).
- **الروضتين في أخبار الدولتين**, جـ1 في قسمين، دار الجيل، بيروت، ط2، 1974م.
- أبو الفدا (ت732هـ/1332م)،
- **المختصر في أخبار البشر**, دار الكتب العلمية، بيروت ط1، 1997م، الجزء الثاني.
- **تقويم البلدان**، باريس، ط1850م.
- أسامة بن منقذ: (ت584هـ/1192م).
-**الاعتبار**، تحقيق فيليب حتى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999م.
- الحموي: (شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، ت626هـ/1228م).
- **معجم البلدان**، أربع مجلدات، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د(ت).
- السيد (علي الحريري، بدون):
- **الأخبار السنية في الحروب الصليبية**، دار الفاروق، القاهرة، د(ت). .

ثانيا: المراجع العربية والمعربة:

- أحمد عطية الله, **القاموس الإسلامي**، أربعة أجزاء، دار النهضة العربية، القاهرة، ط1، 1976م.
- أرشيد يوسف, **سلاجقة الشام والجزيرة**، عمان، ط1988م.
- آرنست باركر، **الحروب الصليبية**، ترجمة الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، د(ت).
- حامد غنيم أبو سعيد، **الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية**، أربعة أجزاء، دار الثقافة، القاهرة، ط2، 1984م.
- حسن حبشي، **نور الدين والصليبيون**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1948م.
- حسين مؤنس, **نور الدين زنكي فجر الحروب الصليبية**، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ط2، 1984م.
- رنيه كروسية، **الحروب الصليبية**، ترجمة أحمد ايبش، دار قتيبة، دمشق، ط 1، 2002م.
- ستيفن رنسيمان، **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة الباز العريني، دار النهضة العربية، بيروت، ط3، 1993م، الجزء الثاني.
- سعيد أحمد برجاوي، **الحروب الصليبية في المشرق**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط1، 1184م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور، **الحركة الصليبية**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط7، 1997م. ط1966م.
-عبد الغني عبد الفتاح زهرة, **الهدن والمفاسخات بين المسلمين والصليبيين**, مكتبة الرشد, الرياض, ط 1, 2006م.
-عزيز سوريال عطية, **العلاقات بين الشرق والغرب**, ترجمة فيليب صابر, دارالثقافة, القاهرة, د(ت)
- عصام شبارو , **تاريخ المشرق العربي الإسلامي**، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1999م.
- عصام عبد الرؤوف الفقي، **بلاد الجزيرة في أواخر العصر العباسي**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1975م.
- فايد حماد عاشور، **جهاد المسلمين في الحروب الصليبية**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1985م.
- فتحية النبراوي, **العلاقات السياسية الإسلامية وصراع القوى الدولية في العصور الوسطى**, دار التضامن, القاهرة, ط 1982م.
- محمد مؤنس عوض، **في الصراع الإسلامي الصليبي السياسة الخارجية للدولة النورية**، دار عين، القاهرة، ط1، 1998م.

- **الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب**، دارعين، القاهرة، ط1، 2000م.
- محمد حامد الناصر، **الحروب الصليبية العلاقات بين الشرق والغرب**، دارعين، القاهرة، ط1، 2000م
- مسفر سالم الغامدي، **الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي**، دار المطبوعات الحديثة، جدة، ط1، 1986م.
- محمود سعيد عمران، **تاريخ الحروب الصليبية**، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، 2006م.
- مكسيموس مونروند، **تاريخ الحروب الصليبية في المشرق**، طبع اباورشليم، 1865م، م 2.
- هانس ابرهارد ماير، **تاريخ الحروب الصليبية**، ترجمة عماد الدين غانم، مجمع الفاتح للجامعات، ليبيا، ط1990م.
- يوشع براور، **عالم الصليبيين**، ترجمة قاسم عبده، دار المعارف، القاهرة، ط1981م.
- **الاستيطان الصليبي في فلسطين**، ترجمة عبد الحافظ البنا، دار عين، القاهرة، ط1، 2001م

المصادر الأجنبية الأصلية المعربة.

وليم الصوري: **الحروب الصليبية**، ترجمة حسن شلبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1994م, الجزء الثالث.